المغرب في ضمير أدبائه

كلية الآداب و الفنون
و الإنسانيات بمنوبة

دار سحر للنشر

الكتاب : المغرب في ضمير أدبائه
المؤلف : مجموعة من الباحثين
النوع الأدبي : مجموع أعمال الندوة التي نظمتها وحدة البحث في : الأدب المغربي القديم بكلية الآداب منوبة يومي 13 و 14 نوفمبر 1988
الناشر : دار سحر للنشر
صورة الغلاف : عبد الرزاق حمودة
سنة الطبع : 2005
ر. د. م. ك. : 3-154-28-9973
السعر : 15 دت
المطبعة المغاربية للطباعة و النشر و الإشهار
الهاتف : 70 837 471 – الفاكس : 70 837 263

دار الكتب الوطنية
التوثيق والإعلام
رقم 296
ت 100
159332
84
814 ريد

المغرب في ضمير أدبائه

A-8-195933

وحدة البحث في

الأدب المغربي القديم

تنسيق الأستاذ : سليم ريدان

311103
تونس
96198

كلية الآداب و الفنون
و الإنسانيات بمنوبة

دار سحر للنشر

9

الحياة اليومية في الأندلس
من خلال كتاب "الصلة" لابن بشكوال (ت 578 هـ)

محمد القاضي
كلية الآداب – منوبة

يعد كتاب "الصلة" لابن بشكوال مواصلة لكتاب "تاريخ علماء الأندلس" لابن الفرضي (ت 403هـ)، وامتدادا لما في كتاب ابن الفرضي من ضوابط أهمها الالتزام بالحديث عن العلماء الأندلسيين والوافدين على الأندلس من الغرباء، والجنوح للاقتصار على معطيات تتعلق بالمسيرة العلمية للمترجم لهم، بذكر أسماء شيوخهم وأسماء تلاميذهم وما عرفوا به في حياتهم العلمية والاجتماعية[1]. وقد نتج عن ذلك قلّة المعطيات المتّصلة بالحياة اليومية في هذا الكتاب.

غير أن أهمية كتاب "الصلة " تكمن في الفترة التي تحدث عنها، وهي النصف الثاني من القرن الرابع وكامل القرن الخامس والنصف الأوّل من القرن السادس للهجرة، وهي فترة اضطراب ومحن ونكبات ارتبطت باسم "الفتنة".

وإذا كنّا نجد في نهاية الجزء الأول وفي نهاية الكتاب ما يدلّ على أنّ الفراغ من كتابته كان سنة 534 هـ. وهوما يذهب إليه ابن شنب وهويسي ميراندا[2] فإن في الكتاب ما ينم عن أن الفترة الزمنية التي يتصل بها تجاوزت هذا التاريخ، إذ نجد إشارات إلى سنة 536 هـ، وسنة 537 هـ، وسنة 538 هـ، وسنة 539 هـ، وسنة 540 هـ، وسنة 542 هـ، وسنة 543 هـ، وسنة 544 هـ، وسنة 546 هـ،

---

1 - انظر على سبيل المثال ترجمة المؤلف لوالده عبد الملك بن مسعود بن بشكوال. ابن بشكوال: كتاب الصلة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القسم الثاني، 1966، ص 366.

2 - E.I.2, T3, p.756

وسنة 547 هـ، وسنة 551 هـ، وسنة 563 هـ[1]. فهل هي من زيادات التلاميذ أو الورّاقين، أم من زيادات المؤلف الذي توفي سنة 578 هـ، ولعله كان يتعهّد كتابه؟ إن الوجه الثاني عندنا أرجح. ومهما يكن من أمر فإن عددا من المعطيات يجاوز التاريخ النهائي المتفق عليه - وهو سنة 534 هـ - بما يقارب ثلاثين سنة. وما هذه الزيادات إلا صدى لما ناله هذا الكتاب من حظوة أشار إليها ابن الأبار (ت658هـ) في قوله: "ألف ابن بشكوال خمسين تأليفا في أنواع مختلفة أجلّها كتاب "الصلة"، سلّم له أكفاؤه كفايته فيه، ولم ينازعه أهل صناعته الانفراد به، بل تشوّقوا للوقوف عليه، وأنصفوا في الاستفادة منه"[2].

وحين نُمعِنُ النظر في كتاب "الصلة" نجد أن صاحبه، على ما أقرّ عزمه فيه من إيجاز وتجاف عن إيراد معلومات تخصّ الحياة الشخصيّة للمترجم لهم، ساق إشارات فيها - على كزازتها معين ثرّ يمكن أن يستغلّ لإدراك جوانب من الحياة اليومية في الأندلس في هذه الفترة، على أنّه من المهمّ أن ننبّه إلى أمرين:

1- إن المعطيات التي نعثر عليها متفرّقة في كتاب "الصلة" ليست من الشمول بحيث تصوّر لنا حياة الفئات الاجتماعية كلها وتضيء لنا جوانب من البيئات المتعايشة في الأندلس جميعها. وإنما هي تخصّ فئة العلماء أساسا، وهي فئة تصلح في رأينا أن تكون عيّنة مفيدة لدراسة الحياة اليومية في الأندلس لتنوّع أفرادها ولوجودها في محلّ وسط بين العامّة والخاصّة.

2- إن غايتنا ليست بناء نظام رمزي كامل يضبط مقوّمات الحياة اليومية في الأندلس في هذه الفترة، وإنما هي التقاط الشذرات المبثوثة في هذا الكتاب لإضاءة زاوية من زوايا هذه الحياة اليومية، على نحو ما تتجلى لنا في بيئة محدّدة هي بيئة العلماء على وجه التدقيق.

إننا نستند في هذا العمل على مفهوم لليومي يجعل منه "جماع الوظيفيات التي

---

1 - ابن بشكوال : كتاب الصلة، القسم الثاني، ص ص 454، 585، 586، 587، 588، 589، 590، 591، 592، 593، 683

2 - ابن الأبار: تكملة الصلة.

تربط وتؤلف بين الأنساق التي تتكون في الظاهر منعزلا بعضها عن البعض الآخر [...] إن اليومي يتضمّن من جهة ما هو دوري (الليل والنهار، والفصول والمواسم، والنشاط والدعة، والجوع والشبع، والرغبة وتحقيقها، والحياة والموت) ومن جهة أخرى ضروبا من السلوك متكررة من قبيل العمل والاستهلاك"[1].

إن المظاهر الدورية والمظاهر المتكرّرة تتعايش في الحياة اليومية وتتفاعل على نحو يغدو معه من العسير أن نفصل بعضها عن بعض. على أنّ كتاب "الصلة" لابن بشكوال، من حيث هو كتاب في تراجم العلماء، لم يصرف اهتمامه الى المظاهر الدورية بقدر ما اهتمّ بالمظاهر المتكررة. ذلك أنه سعى إلى تقديم صورة موجزة عن المسار الذي قطعه هؤلاء العلماء في حياتهم العلمية والمهنية والأخلاقية مركزا على ما قاموا به أو وقع لهم في المجالات المذكورة. ومن ثم فقد رأينا أن نجعل عملنا هذا في مفصلين نفرد أولهما للمظاهر المادية للحياة اليومية، ونجعل مدار الثاني على المظاهر المعنوية من هذه الحياة.

1- المظاهر المادية من الحياة اليومية:

أدرج ابن بشكوال في ترجماته معطيات تتصل بمعاش العلماء وأحوالهم، ومظهرهم ولباسهم، ومأكلهم ومسكنهم. وهذه المعطيات - على ضآلتها - مفيدة في الكشف عن مقوّمات حياة العلماء المادية، من حيث هم أفراد يعيشون في وسط اجتماعي معلوم، وينشئون معه ضروبا من العلاقات، ويتأثرون به ويعملون على التأثير فيه.

1-1- المعاش

أوّل ما يطالعنا في هذه التراجم قلّة العلماء الأغنياء. فقد حدّثنا ابن بشكوال عن هذا العالم المفتي الذي " كان من أهل الفطنة والدهاء والثروة "[2]، وعن آخر "كان ذا قدر في العدالة والجاه والثروة بقرطبة"[3]. وعن ثالث " نوّه به سليمان بن حكم

---

1 - Henri Le febvre : Quotidien et quotidienneté, Encyclopedia Universalis, T 19.

2 - م، ن، ج ا، ص 214.

3 - م، ن، ج II، ص 489.

المستعين وأجلسه للإقراء بالمسجد الجامع بقرطبة، وأصاب ثراء ورفعة[1]، وعن رابع من أهل طليطلة "هو من جلة علمائها، من أهل البراعة والفهم والرياسة في العلم، متقننا، عالما بالحديث وعلله، وبالفرائض والحساب واللغة والإعراب والتفسير وعقد الشروط [...] وكان كلفا بجمع المال"[2]، وعن خامس كان "عظيم اليسار"[3].

إلا أن هذا المظهر نادر يكاد يكون في حكم الاستثناء. فصورة العالم إجمالا مرتبطة بالكفاف، لا، بل إنها تبلغ أحيانا حد الخصاصة. فهذا شاعر "توفي [...] فقيرا معدما"[4]، وهذا واعظ "كان متقللا من الدنيا راضيا من قوته باليسير"[5]، وهذا محدث "لحقته خصاصة أدته إلى كشف الوجه دون إلحاف"[6]، وهذا راوية محدث "لحقته خصاصة في آخر عمره فكان يتكفف الناس"[7].

وقد كان عدد من المترجم لهم يرفض أن يتقاضى أجرا عما يقوم به من عمل. فوجدنا من "لم يأخذ على عمله في القضاء أجرا"[8]، ومن "سكن قرطبة وأقرأ الناس بها محتسبا"[9]، ومن "كان يبصر الوثائق ويعقدها ولا يأخذ عليها أجرا"[10]، ومن كان "يعلم الناس أمر وضوئهم وصلاتهم وجميع ما افترض الله عليهم [...] قليل المال، صابرا، قانعا راضيا باليسير من المطعم والملبس، وأشير عليه بأن يفرض له في الجامع فأبى من ذلك"[11].

ويقدم لنا كتاب "الصلة" معلومات هامة عن الأعمال الأخرى التي كان يتعاطاها هؤلاء العلماء، وقد قسمناها أقساما ثلاثة:

1-1-1- الأعمال الفلاحية:

وتتجلى في صور مختلفة يجمع فيها المترجم له بين العلم وعمل الأرض. فهذا

1 - م، ن، ج I، ص 175.
2 - م، ن، ج I، ص 60.
3 - م، ن، ج II، ص 637.
4 - م، ن، ج II، ص 674.
5 - م، ن، ج I، ص 120.
6 - م، ن، ج II، ص 225.
7 - م، ن، ج II، ص 400.
8 - م، ن، ج II، ص 337.
9 - م، ن، ج I، ص 45.
10 - م، ن، ج I، ص 274.
11 - م، ن، ج I، ص 278.

المحدث القاضي كان يختلف إلى غلة كانت له بحومة المترب يعمرها بالعمل ليعيش منها"[1]. وهذا الحافظ الفقيه المجاهد "يقيم عيشه من مويل كان له بحصن أبلية أو المهدومة من سماق وشيء من عنب وتين، يصير إليها في كل عصر، فيجمع ماله في تلك الضويعة ويسوقه إلى قرطبة ويبتاع به قوتا"[2]. وهذا العالم الراوية المقرئ كان يتولى عمل عنب كرمه بنفسه"[3]. وهذا الراوية كان شيخا صالحا عفيفا يتعيش من ضيعة ورثها عن أبيه"[4].

وهذا القاضي كان رجلا صالحا متواضعا، وكانت له جنان يحفرها بيده"[5]. وهذا المقرئ يجمع بين التدريس والعمل فيقول أحد تلاميذه: "كنا نختلف [إليه] إلى المنية فنقرأ عليه وهو يزرع والقفيفة في ذراعه وهو يزرع ونحن نقرأ عليه"[6].

إن تردد صفات الصلاح والصفة والتواضع، واستخدام صيغ التصغير في "مويل" و"ضويعة" و"قفيفة" يدلان على تعاطف مع هؤلاء العلماء، وتصوير لهم باعتبارهم نموذجا أوفى ومثلا أعلى يجسد الوفاء للعلم وتنزيه العالم عن امتهان نفسه.

1-1-2- التجارة

في كتاب "الصلة" إشارات كثيرة إلى جمع المترجم له بين طلب العلم والتجارة، من قبيل "قدم الأندلس تاجرا"[7] و "قدم قرطبة تاجرا"[8]، و "قدم إشبيلية تاجرا"[9]، أو "كان معاشه من التجارة"[10]. إلا أن هذه الإشارات لا تفصح عن ماهية التجارة ولا عن حجمها. غير أننا وجدنا في إحدى التراجم شيئا من التفصيل حين ذكر أن هذا المحدث كان "صبورا على القل [...] يتمعش من بضيعة حل بيده يضارب له بها ثقات

1 - م. ن. ج 1، ص 58.
2 - م. ن. ج 1، ص 303.
3 - م. ن. ج 1، ص 265.
4 - م. ن. ج II، ص 383.
5 - م. ن. ج II، ص 683.
6 - م. ن. ج 1، ص 29.
7 - م. ن. ج II، ص ص 367، 375.
8 - م. ن. ج II، ص 432.
9 - م. ن. ج II، ص 441.
10 - م. ن. ج II، ص 354.

إخوانه المسافرين في وجه ما"[1]. إن هذه الإلماعات تجمع على نحو جليّ بين العلم والتجارة، إلا أنها قلّما تفصح عن تزامن هذين الوجهين من وجوه النشاط. وفي كثير من الحالات ترتبط الإشارة إلى التجارة بالعلماء الطارئين على الأندلس لتفسير تنقلهم وبيان اجتذاب العلم لهم. فكأنّ التجارة هنا مجرّد مدخل أو مجاز للعلم.

1-1-3- أعمال أخرى

يكتفي ابن بشكوال في أحيان كثيرة بالإلماع إلى تعاطي المترجم له نشاطا، دون أن يصرّح بأنّ هذا النشاط مهنة يرتزق منها أو عمل يقوم به محتسبا، من قبيل قوله : "كان يقرئ في دكانه قرب المسجد الجامع بقرطبة، وينقط المصاحف، ويعلّم المبتدئين"[2]. أو "كان يجلس للوثائق بجوف المسجد الجامع بقرطبة"[3]. أو "عني بالشروط وجلس يعقدها بين الناس بجوفيّ الجامع"[4]. أو "كان يكتب المصاحف وينقطها"[5]. أو "كان خطاطا بارع الخط في المصاحف وأفنى عمره في كتابتها"[6]. أو "كان يغسل الموتى"[7]. أو "كان يغسل الموتى ويجيد غسلهم وتجهيزهم"[8]. أو "كان يغسل موتى أولي النباهة"[9]. أو "كان معلّم كتّاب"[10]

ويومئ المؤلف أحيانا أخرى الى تعاطي المترجم له نشاطا، إلاّ أنّه لا يخصّصه كقوله: "كان وقورا حليما، يجلس في مسجده للرواية غدوة. ويتصرف في معاشه داخل نهاره، ثم ينصرف إلى مسجده عشاء، فربما قرئ عليه وإلا كتب"[11].

غير أننا نعثر في حالات قليلة على ذكر لمهنة بعينها، من قبيل "كان ورّاقا"[12]

1 - م، ن، ج ا، ص 150.
2 - م، ن، ج ا، ص 88.
3 - م، ن، ج ا، ص 133.
4 - م، ن، ج ا، ص 271.
5 - م، ن، ج ا، ص 161.
6 - م، ن، ج ا، ص 199.
7 - م، ن، ج ا، ص 46.
8 - م، ن، ج ا، ص 39.
9 - م، ن، ج ا، ص 212.
10 - م، ن، ج II، ص 395.
11 - م، ن، ج II، ص 442.
12 - م، ن، ج ا، ص 136.

أو كان وراقا محسنا، حلو الخط ، حسن الرتبة، كثير الدربة، مقتنعا في دنياه متقللا منها"[1]، أو كان يلتزم صناعة الخرّازين"[2]، أو كان معاشه من ثياب كان يبتاعها ببجانة، ويقصرها ويحملها إلى قرطبة فتباع له ويبتاع بثمنها ما يصلح ببجانة، ويجلب كتبه فيقرأ عليه في خلال ذلك"[3].

إن هذا الشاهد الأخير يؤكد سمة مهمة من سمات حياة العلماء اليومية في الأندلس وهي الازدواج والتوازي بين ما له صلة بالعلم وما له صلة بالمعاش. نعم، إن العلم قلما يتخذ مدرجة إلى الثراء، ولعل صورة العالم المثلى هي تلك التي نراه فيها واهبا علمه بلا مقابل عاملا على تحصيل معاشه بيده. وفي هذا كسر للتقابل القديم بين عمل الفكر وعمل اليد، وإعادة اعتبار لعمل اليد بوصفه مرقاة لاستقلالية العالم ودليلا على نزاهته.

غير أننا لا نعدم صورة العالم الذي يتقاضى على تأليفه وتدريسه مقابلا. كذلك الذي ألف كتابا فأثابه عليه المنصور بن أبي عامر بخمسة آلاف دينار دراهم في دفعة، وأمره أن يسمعه الناس بالمسجد الجامع بالزاهرة في عقب سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، واحتشد له من جماعة أهل الأدب ووجوه الناس أمة"[4]. وهذه الصورة تقابلها صورة أخرى نجد ملامحها في الخبر التالي المنقول عن ابن الفرضي، وفيه "أن الأمير أبا الجيش مجاهد بن عبد الله العامري وجه إلى أبي غالب أيام غلبته على مرسية، وأبو غالب ساكن بها، ألف دينار اندلسية على أن يزيد في ترجمة هذا الكتاب : "هذا مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد"، فرد الدنانير وأبى من ذلك، ولم يفتح في هذا بابا البتة وقال: "والله لو بذلت لي الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب، فإني لم أجمعه له خاصة، لكن لكل طالب عامة".

"فأعجب لهمة هذا الرئيس وعلوها وأعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها"[5]. ولعل تعليق ابن بشكوال كاف للدلالة على انحياز لهذا النموذج الذي يجعل العلم فوق المال. وإن كان من المهم أن نشير إلى أن التضارب ههنا ليس قائما بين العلم والمال، وإنما هو قائم بين السلم الأخلاقي والسلم المادي.

---

1 - م، ن، ج II، ص 675.
2 - م، ن، ج II، ص 663.
3 - م، ن، ج I، ص 317.
4 - م، ن، ج I، ص 238.
5 - م، ن، ج I، ص 120.

1-2- الهيئة والملبس

يتردد في كتاب "الصلة" حديث عن هيئة العلماء ووسامة عدد منهم، من قبيل كان وسيما حسن الخلق والخلق"[1]، أو "كان فاضلا صالحا وسيما"[2]، أو "كان وقورا وسيما حسن الهيئة"[3]، أو كان "ربعة من الرجال ليس بالطويل ولا بالقصير، وسيما جميلا حسن الهيئة والخلق"[4]، أو "كان شيخا وسيما فاضلا"[5]، أو كان "جميل المنظر والملبس"[6]. كما نجد ما يدل على حرص عدد من المترجم لهم على التجمّل، فمنهم من "كان يخضب بالسواد"[7]، ومنهم من كان "كثيرا ما يكتحل بالإثمد ويجلس للسماع محتبيا [...] وكان [...] يوالي الاكتحال بالإثمد ويحضّ عليه. فقلّ ما يرى إلاّ محشوّ العين به. ويقول كثيرا لا تمنعوا العين قوتها فتمنعكم ضوءها"[8]. ومنهم من يميل إلى التعطّر فيكون "عطر الرائحة حسن الملبس"[9]. ومنهم من يبالغ في ذلك كهذا المحدث الذي كان "جميل المرآة كامل الخلق، حسن السّمت والخلق، نظيف الملبس، يتمّ عليه من

الطيب ما يعرفه من يألفه وإن لم يبصر شخصه، وما يبقى على ما يسلكه من الطريق رائحته برهة، فيعرف به من يسلك ذلك الطريق إثره أنه مشى عليه"[10].

إن هذه الصفات قلما ترد منفصلة عن صفات أخرى معنوية إيجابية يتصف بها المتحدّث عنه، مما يجعلنا نميل إلى جعل الهيئة والملبس من مكمّلات العلم. فكأنها الظاهر الذي ينمّ عن الباطن. غير أننا نجد في حالات أخرى إلحاحا على تواضع هيئة المترجم له وملبسه. فمنهم من "كان يلبس الصوف"[11]، و "كان رجلا صالحا متبتلا متقشفا يلبس الصوف"[12]، و "كان من أهل الاجتهاد والورع، وكان يلبس الصوف

---

1 – م، ن، ج ١، ص 14.
2 – م، ن، ج ١، ص 17.
3 – م، ن، ج ١١، ص 342.
4 – م، ن، ج ١١، ص 385.
5 – م، ن، ج ١١، ص 515.
6 – م، ن، ج ١، ص 174.
7 – م، ن، ج ١، ص 259.
8 – م، ن، ج ١، ص ص 272-273.
9 – م، ن، ج ١١، ص 352.
10 – م، ن، ج ١١، ص 637.
11 – م، ن، ج ١، ص 121.
12 – م، ن، ج ١، ص 211.

ويستشعره ويمشي حافيا، ولا يقبل من أحد شيئا"[1]. ومنهم من "يلبس الخشن من الثياب"[2]، و "يقتصر من لباسه على فوطة ومرقعة"[3]. ومنهم من "كان مبتذلا في لباسه، متواضعا في أموره كلها"[4]. ومنهم من "كان مواظبا على الصلاة بالجامع، ولقد خرج إليه في بعض الليالي لصلاة العشاء حافيا في ليلة مطر"[5].

إن هذين الجانبين اللذين يبدوان متناقضين يكملان ما رأيناه في قسم المعاش، ويصبان معا في تعظيم منزلة العالم، فحسن الهيئة ينمّ عن مقام العلماء، ورثاثة الهيئة تنمّ عن ازدراء الدنيا والاعتناء بالعلم. فنخرج بذلك من دلالة الظاهر على الباطن، والمظهر على المخبر، إلى تقابل العرض والجوهر، والمادّة والروح.

1-3- المآكل

رغم قلّة ما ذكر في كتاب "الصلة" عن الطعام فإننا نظفر فيه بما يؤكد الازدواج المشار إليه آنفا، إذ لدينا من جهة ما يدلّ على الكرم والإيثار، كهذا الفقيه الذي "كان أكرم الناس على توسط ما له. كان يطعم ويضيف ويهادي ويتحف بفاكهة جنة له كانت معظم ماله. وقد أضاف قوما أعواما"[6]، أو هذا الفقيه الذي روى عنه أحد تلاميذه قال: "كنت آتي إليه من قلعة رباح وغيري من المشرق. وكنا نيفا على أربعين تلميذا [...] فإذا فرغ الحديث أمسكهم جميعا وقدّمت الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب، وأيام ثرائد اللبن بالسمن أو الزبد، فنأكل تلك الثرائد حتى نشبع منها، ويقدم لنا بعد ذلك لونا واحدا ونحن قد روينا من ذلك الطعام. فكنا ننطلق قرب الظهر مع قصر النهار ولا نتعشى حتى نصبح إلى ذلك الطعام الثلاثة الأشهر. فكان ذلك منه كرما وجودا وفخرا لم يسبقه أحد من فقهاء طليطلة إلى تلك المكرمة"[7].

1 – م، ن، ج I، ص 196.
2 – م، ن، ج II، ص 650.
3 – م، ن، ج II، ص 448.
4 – م، ن، ج I، ص 303.
5 – م، ن، ج I، ص 265.
6 – م، ن، ج II، ص 527.
7 – م، ن، ج I، ص 37.

ولدينا من جهة ثانية ما يدل على التقشف، كهذا المقرئ الذي كان "متبتلا دائم الصيام، دهره عابدا [...] يحاول عجن خبزه وقوته بيده"[1]، أو هذا المقرئ المحدث الذي "كان لا يأكل اللحم ولا يسيغه، إلا أن يكون لحم حوت خاصة"[2]، أو هذا المحدث واللغوي الذي "لم يأكل لحما من أول الفتنة إلا من طير، أو حوت وصيد"[3].

إن هذه المعطيات لم تأت في سياق الترجمات لإبراز جانب من المظاهر المادية الملازمة للعلماء في حياتهم اليومية، وإنما هي معلومات تساق لإظهار غيرها، من قبيل الكرم والتواضع أو لبيان الآثار النفسية التي تتركها في النفوس مراحل الاضطراب الاجتماعي والفتن.

I-4- المسكن

يكتمل المشهد بما يتناثر في كتاب "الصلة" من معلومات تدل على مساكن العلماء. وكثيرا ما يسمّي ابن بشكوال الموضع الذي كان يقيم به المترجم له. إلا أن هذه الأسماء تظل في أغلب الأحيان صامتة، إلا إذا ربطناها بما عرف من كتب التاريخ عن حواضر الأندلس، وأحياء موسريها وأحياء معدميها. وعدا هذا نجد ما يدل على سعة العيش، كمجلس الشيخ الفقيه الذي يصفه أحد تلاميذه فيقول: "كنا ندخل في داره في شهر نوفمبر ودجنبر في مجلس قد فرش ببسط الصوف مبطنات، والحيطان بالليود من كل حول، ووساد الصوف، وفي وسط كانون في طول قامة الانسان مملوء فحما يأخذ دفئه كله من في المجلس"[4]، أو مجلس القاضي المحدث الذي "كانت كتبه في مجلس جدرانه [كذا: ولعلها جدرانه] بالخضرة، وسمكه وسطحه والبرطل أمامه والبسط الذي فيه، والنمارق كلها خضر"[5]. إن اتساع الفضاء هنا قائم على خلفية الكرم العربي إلا أن تزويقه والاعتناء بجماليته يحيلان إلى بيئة حضرية منعمة غدت فيها زينة المجلس مقوما من مقومات نمط العيش.

---

1 - م، ن، ج ا، ص 166.
2 - م، ن، ج ا، ص 9.
3 - م، ن، ج II، ص 527.
4 - م، ن، ج ا، ص 37.
5 - م، ن، ج ا، ص 312.

ومقابل هذا نجد من المترجم لهم من لم يكن لهم مقر، كهذا المقرئ الذي "كان يسكن المسجد"[1]، أو هذا الزاهد المحدث الذي كان "سائحا في الأرض لا يأوي إلى وطن [...] قدم قرطبة وسكن مسجد متعة وتعبّد فيه"[2]، أو هذا المقرئ الذي، كان منقبضا منذ دخل قرطبة، وأقام فيها سبعة أشهر في الفندق الذي نزل فيه ولم يتعرض للقاء أحد"[3].

إن هاتين الصورتين المتقابلتين لتؤكدان الجانبين المتجاورين في حياة العلماء اليومية في الأندلس، وهما الترف الذي يكون أداة لإظهار الكرم وعلوّ المقام ونور العلم، والتقشف الذي يأتي لإبراز غنى الباطن والروح، ويتبيّن أن العلم هو الثروة الحق.

ولعلّه من المفيد أن نذكر أن هاتين المنزلتين لا تقتصران على الحياة، وإنما هما تظهران في الممات أيضا، وعلى وجه التدقيق في الكفن فلدينا شخصيات موسرة كالقاضي الذي "أوصى أن يكفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة"[4]، أو ذلك الفقيه الذي" لمّا خرج بنعشه ازدحم الناس عليه حتى صار النعش في أكفهم إلى أن وصل إلى قبره مكفنا في حبرة"[5]. ولدينا أيضا شخصيات حكم عليها أن تعيش المحنة حتى وهي ميتة، كالفقيه الذي "كفنه ابنه في نطع"[6]، أو الراوية الفقيه الذي " قتله البربر عند دخولهم قرطبة في صدر شوال سنة ثلاث واربعمائة، فمات شهيدا. ووافقته إذ دخلت الربض منصرفا من حومتنا، وقد ساقه ابن يعيش إلى المقبرة في فرد باب، ودعاني ونبّهني عليه، حضرت معه الى قبره وواريته فيه على غرر وتخوّف لمنع الناس من مواراتهم ودفنهم حينئذ، وفعلت به ما يفعل بالشهداء، ودفنته في ثيابه المختصرة دون غسل ولا صلاة عليه"[7].

1 – م، ن، ج I، ص 166.
2 – م، ن، ج I، ص 177.
3 – م، ن، ج II، ص 419.
4 – م، ن، ج I، ص 247.
5 – م، ن، ج I، ص 133. والحبرة: ثوب من قطن أو كتان مخطط كان يصنع باليمن. ملاءة من الحرير كانت ترتديها النساء بمصر حين خروجهن.
6 – م، ن، ج I، ص 254.
7 – م، ن، ج II، ص 491.

إننا نجد أنفسنا في هذا الشاهد الأخير في قلب المعمعة التي عصفت بحياة الأندلسيين وساقتهم إلى الاضطراب واختلال المراتب واهتزاز المراسم. ولقد قادنا النظر في المظاهر المادية لحياة العلماء اليومية في الأندلس إلى تبيّن هذه الظاهرة المستحكمة فيها والموسومة بالازدواج بين الثراء والفاقة، والترف والشظف، وهو ازدواج ظهر لنا في طرائق تحصيل المعاش وفي الهيئة واللباس وفي المأكل والسكن. ولعل النظر في الجوانب المعنوية من حياة هؤلاء العلماء اليومية يساعدنا على استكمال ملامح الصورة الباقية.

2- المظاهر المعنوية من الحياة اليومية

إن ما يضمّه كتاب "الصلة" لابن بشكوال من إشارات تتصل بالمظاهر المادية لحياة العلماء اليومية كالمعاش والملبس والمأكل والمسكن لا يمثل إلا جزءا من المعطيات التي يوفرها هذا الكتاب. ذلك أن هذه الجوانب وإن اتسمت بشيء من الخصوصية تظل جوانب عامة مشتركة بين أفراد المجتمع الأندلسي. أما المظاهر المعنوية فإنها أوثق صلة بفئة العلماء، لأنها تتعلّق بجملة من القيم والمراتب واللوازم التي ينفرد بها العلماء. وقد رأينا أن نجعل هذه المظاهر في سلمين، جمعنا في أولهما العلم والعمل، وجمعنا في ثانيهما السياسة والقداسة. فراعينا بذلك اعتبارين. أحدهما أفقي يقودنا من دائرة لصيقة بمهمة هذه الفئة إلى دائرة تتصل بهم أو يتصلون بها دون أن يكون وجودهم متوقفا عليها، والثاني عمودي في قاعدته أنماط السلوك وضروب المواقف وفي قمته أشكال التمثل وإفراز المخيال.

2-1- العلم و العمل

لئن تعددت أدوار العلماء المترجم لهم في كتاب "الصلة" بين الإمامة والقضاء وعقد الشروط وتدريس الصبيان وغيرها، فإن العمل الغالب عليهم كان التدريس. ويحدثنا ابن بشكوال عن إقبال طلاب العلم على حلقات الدرس حتى في أوج الأزمات السياسية والاجتماعية، فيذكر لنا أن أحد الوعاظ (ت 432 هـ) كان رجلا فاضلا، واعظا سنيا، ورعا أديبا شاعرا، وكان له مجلس بالمسجد الجامع بقرطبة يعظ الناس فيه في غاية من الحفل، وكان الناس يبكرون إليه ويزدحمون عليه[1]. وفي فترة

1 - م، ن، ج 1، ص 49.

قريبة من هذه الفترة كان درس الفقه والحديث الذي يلقيه سليمان بن حرب (ت 474 هـ) كعبة القصاد " كان يحضر مجلس سليمان بن حرب رحمه الله ثلاثة آلاف رجل للسماع منه. [... وقيل] إن سليمان بن حرب كان يحضره أربعون ألف رجل"[1]. ومن مظاهر الإقبال على المجالس ما ذكره ابن بشكوال عن فقيه حافظ قاض " كان يملي الحديث من حفظه في مسجده، ومستمل بين يديه على ما يفعله كبار المحدثين بالمشرق والناس يكتبون عنه"[2]. غير أن هذا الإحكام الذي يدل على استقرار المراسم وعلو مرتبة الشيخ ربما أصابه الاختلال على غرار ما حدث في مجلس أحد القراء الخطباء، إذ روى بعضهم قال : كان عندنا بقرطبة رجل فيه بعض الحدة، وكان له على الشيخ أبي محمد مكي [ت 437 هـ] المقرئ تسلط . كان يدنو منه إذا خطب فيغمزه، ويحصي عليه سقطاته. وكان الشيخ كثيرا ما يتلعثم ويتوقف فجاء ذلك الرجل في بعض الجمع، وجعل يحدّ النظر إلى الشيخ ويغمزه. فلما خرج ونزل معنا في موضعه الذي كان يقرئ فيه قال لنا: أمّنوا على دعائي. ثم رفع يديه وقال: اللهمّ أكفنيه، اللهم أكفنيه، اللهم أكفنيه، فأمّنّا. [قال] : فأقعد ذلك الرجل وما دخل الجامع بعد ذلك اليوم"[3]. إن بنية هذا الخبر تنهض على فعل أدى إلى الاختلال، ورد فعل أعاد الاستقرار. فهذا النمط من السلوك يبدو شاذا، ولذلك عزي منذ البداية إلى اضطراب في طبع هذا الرجل وهو ما يفسر العقاب الذي حل به وهو من جنس الخلل الذي اعتراه: فحدته المفرطة أتت إلى شلله التام، وحصل ذلك بفضل تدخل القوى الغيبية لإعادة النظام على الأرض. وما وقوع ذلك على يد الشيخ إلا دليل على تجسيده للمشيئة العلوية الخيّرة.

إن هذه الصورة المشرقة لمجالس العلماء تقابلها صورة أخرى تتسم بالقطيعة والامتناع عن التدريس. شأن هذا الشيخ الذي كان من أهل القرآن والعلم، نبيلا من أهل الفهم، مائلا إلى الزهد والانقباض[...] خيّرا فاضلا منقبضا عن الناس"[4]. أو هذا الفقيه الراوية الذي كانت له "رواية كثيرة ودراية، إلا أنه أغلق على نفسه باب الرواية والاجتماع إليه، وإنما كان لمن قصده مفردا وعلم صحة مقصده، واعتزل الناس وأقبل على العبادة"[5]. وقد يكون تعطل هذه الوظيفة الأساسية في حياة العالم

1 - م، ن، ج ا، ص 202.
2 - م، ن، ج ا، ص 310.
3 - م، ن، ج II، ص 633.
4 - م، ن، ج ا، ص ص 167-168.
5 - م، ن، ج ا، ص 215.

حدثا عرضيا أدت إليه أسباب لا يفصح عنها، إلا أن السياق يدل على أنها تستمد وجودها من صراع العالم والسلطان. ويمثل ذلك رجل كان من جلة العلماء وكبار الفقهاء، حافظا للفقه على مذهب مالك وأصحابه، بصيرا بالفتوى، مقدما في الشورى، عارفا بالشروط وعللها [...] حدث وسمع الناس منه وناظروا عليه. ولزم داره في آخر عمره لسعاية لحقته، فحرم الناس منفعة علمه"[1].

إن ثنائية الإقبال والإدبار هذه التي تتجلى لنا في مجالس العلم فتشدها إلى أقطاب المعرفة والسلطة والمجتمع يظهر لنا منها طرف في إحدى لوازم العلم وهي الكتب. إذ تطالعنا من جهة رغبة في اقتنائها كما هو الحال عند هذا القاضي المحدث الذي "كان له ستة وراقين ينسخون له دائما. وكان قد رتب لهم على ذلك راتبا معلوما. وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه للابتياع منه وبالغ في ثمنه. فإن قدر على ابتياعه وإلا انتسخه منه ورده عليه"[2]. وأكثر من هذا دلالة على الشغف بجمع الكتب أمر هذا المحدث الذي "لحقته خصاصة أدته إلى كشف الوجه دون إلحاف"[3] في آخر أيامه. وهذا الرجل هو نفسه الذي ساق "من المشرق ثمانية عشر جملا مشدودة من كتب [...] واضطرب في المشرق سنين كثيرة جدا يجمع في الآفاق كتب العلم، فكلما اجتمع من ذلك مقدار صالح نهض به إلى مصر. ثم انزعج بالجمع إلى الأندلس. وكانت في كل فن من العلم، ولم يتمّ له ذلك إلا بمال كثير حمله إلى المشرق"[4]. إن هذا الجانب يأتي مؤكدا لأولوية العلم على المادة، وهي أولوية جرّت صاحبها إلى ما يشبه التسوّل بعد أن تقدمت به السن، إلا أن هذا الوضع لم يفتح في تغيير المراتبية التقليدية. ولذلك فإن افتقار الرجل بكثرة إنفاقه على الكتب قد عدّ من حسناته.

أمّا المظهر الثاني من مظاهر الأهمية التي تحظى بها الكتب فمداره على انتهابها وبيعها وخاصة خلال ما عرف في تاريخ الأندلس بالفتنة البربرية ففي "الصلة" إشارات إلى أن البربر كانوا ينهبون الكتب. وفي هذا السياق تندرج رواية أحد الحفاظ المحدّثين ممّن عرف بجمع الكتب، إذ قال عن نفسه: "شددت في داري بالربض الغربي ثمانية أحمال من كتب لإخراجها إلى مكان غيره، ولم يتمّ لي العزم

1 - م. ن، ج 1، ص ص 109-110.
2 - م. ن، ج 1، ص 310.
3 - م. ن، ج 1، ص 225.
4 - م. ن، ج 1، ص 225.

حتى انتهبها البربر"[1]. وهذا العالم نفسه " لحقته خصاصة في آخر عمره فكان يتكفف الناس"[2]. و هذا النهب كثيرا ما يذهب بالكتب شأن "كتاب الباهر الذي أهلكه النهب في نكبة آل عامر، فالحق نظامه وطمس رسمه"[3]. وما أسرع ما تنقلب الأمور فإذا بتلك الكتب التي يغالي في طلبها ويرتب لها الوراقون لانتساخها تباع بالمزاد وتظل معروضة طيلة سنة بتمامها "إن أهل قرطبة اجتمعوا لبيع كتب جده هذا مدة عام كامل في مسجده في الفتنة في الغلاء، و [..] اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسمية"[4]. إن الخطاب الأدبي يدعونا ههنا إلى قراءة الخبر قراءة مخصوصة. فليس الأمر يتعلق بهوان شأن الكتب، وانما هو متصل على عكس ذلك بفرط اهميتها إذ أن سوقها ظلت نافقة حتى في مراحل الضيق الاقتصادي. إلا أن ما يمكن أن نقرأه في غضون هذا الخبر هو الأسى لتفرق هذه الكتب بعد أن كان صاحبها ضنينا بها، إذ كان "لا يعير كتابا من أصوله البتة: وكان إذا سأله أحد ذلك وألحف عليه أعطاه للناسخ فنسخه وقابله ودفعه إلى المستعير فإن صرفه وإلا تركه عنده"[5]. إن القطب الاقتصادي لا يعدو أن يكون في هذه الحالة غطاء يشف عن قطب العاطفة الذي يوحي إدراجه على محور زمني بشيء من الحنين إلى ماض عفت رسومه يوازيه شيء من الإنكار لتحول الزمان.

وتكتمل ثنائية الإقبال والإدبار هذه حين تحاول النفاذ إلى المجال السلوكي في حياة العلماء اليومية، وتخصّ منه بالبحث صلتهم بالجهاد. وبإمكاننا أن نميز في هذا المقام بين موقفين يرتبط أولهما بمحاربة الكفار ويرتبط الثاني بالسلوك المتبع خلال الفتنة. ففي الحالة الأولى تتردد هنا وهناك إشارات إلى مشاركة العلماء في الوقائع التي كان المسلمون يواجهون فيها الكفار، من قبيل "قدم طليطلة مجاهدا" و"دخل سرقسطة مجاهدا" و"قدم علينا طليطلة مرابطا" و "قتل بجبل قتليش شهيدا" و"استشهد بالزلاقة مقبلا غير مدبر" و"استشهد [...] في وقعة قتلدة بثغر الأندلس [...] وهو يومئذ من أبناء الستين"[6]. وهنا تبرز صورة العالم العامل الذي يصدق فعله قوله.

---

1 - م، ن، ج II، ص 400.
2 - م، ن، ج II، ص 400.
3 - م، ن، ج I، ص 307.
4 - م، ن، ج I، ص 310.
5 - م، ن، ج I، ص 311.
6 - م، ن، ج I، ص ص 18-86-135-17-68-146.

أما في الحالة الثانية فإن كتاب "الصلة" يزخر بتراجم العلماء الذين لقوا مصرعهم أثناء الفتنة. ومنهم من كان مآله الذبح "فحان حينه بأيدي البرابرة عند تغلبهم على قرطبة، وذبحوه في منزله"[1] ومنهم من "استقضي في الفتنة على كورة رية وقتل خطأ على باب داره"[2]. ومنهم من "قتلته البرابرة يوم تغلبهم على قرطبة في جوف بيته مدافعا عن أهله وولده"[3] ومنهم من "قتلته البربر يوم دخولهم قرطبة، وكان قد استقبلهم شاهرا سيفه يناديهم: اليّ إليّ يا حطب النار"[4]

إن هذه المقاومة للبربر إلى حدّ الموت يقابلها موقف آخر يتمثّل في ترك موطن الفتنة والتوجه إلى مكان غيره. وقد جسّم هذا الاختيار عدد ممن ترجم لهم ابن بشكوال شأن هذا العالم في القرآن الذي كان "منقبضا عن الناس، وخرج عن قرطبة في الفتنة وقصد طرطوشة"[5]. أو هذا القارئ الذي "خرج في الفتنة إلى الثغر، ثم انتقل إلى جزيرة ميورقة فتوفي بها"[6]. أو هذا الفقيه المقرئ الذي "لما وقعت الفتنة خرج عن قرطبة فيمن خرج عنها وقصد المرية"[7]. أو هذا القاضي الذي "خرج عن قرطبة فارا من الفتنة فهلك ببلده"[8]. أو هذا الأديب اللغوي الذي "خرج من الأندلس في الفتنة وقصد صقلية فمات بها"[9]. وإذا كان الخروج من موطن الفتنة يمكن أن ينمّ عن عزوف المترجم له عن رفع السلاح في وجه المسلم فإن النصّ لا يخفي في بعض الحالات شيئا من الإعجاب بمن قاوم البربر، ومن ثم فإننا نلمح نقيض ذلك في الربط بين الفرار والموت.

إن هذه الإلمامة بمظاهر حياة العلماء اليومية في الأندلس من جانبها المعنوي قد أوقفتنا في هذه المرحلة الأولى على ظاهرة الازدواج بين الإقبال على العلم والإدبار عنه، وبين التوفيق بين العلم والعمل والفصل بينهما. وقد لاحظنا في مناسبات كثيرة من هذا القسم أن حياة هذه الفئة موصولة كأوثق ما يكون الاتصال بالمجال السياسي الذي سنحاول أن ننظر في صلة العلماء به في القسم الموالي مع

1 – م. ن. ج I، ص 232.
2 – م. ن. ج II، ص 450.
3 – م. ن. ج II، ص 491.
4 – م. ن. ج II، ص 490.
5 – م. ن. ج I، ص 168.
6 – م. ن. ج I، ص 36.
7 – م. ن. ج I، ص 39.
8 – م. ن. ج I، ص 163.
9 – م. ن. ج I، ص 237.

ربطه بمجال القداسة الذي يظهر في حالات شتى مندسا في ثنايا الحياة اليومية لهؤلاء العلماء، مصاحبا لصورتهم في المخيال الجمعي الأندلسي في الحقبة المدروسة.

2-2- السياسة والقداسة

لا نظفر في التراجم الوارده في كتاب "الصلة" بموقف موحد يجمع العلماء ازاء رجال السياسة، فقسم منهم يقبل القيام بما يطلب منه من مهام. كهذا الفقيه المقرئ الواعظ الذي "تولى عقد الوثائق لمحمد المهدي أيام توليه للملك بقرطبة، فلما وقعت الفتنة خرج عن قرطبة فيمن خرج عنها، وقصد المرية فأكرمه خيران الصقلبي صاحبها، وأدنى مكانته، وعرف فضله وأمانته فقلده قضاء لورقة، فخرج إليها وألقى عصاه بها، والتزم الصلاة والخطبة بجامعها، ولم يزل حسن السيرة فيهم، محمودا لديهم محببا اليهم إلى أن توفي"[1]. أو هذا المحدث الذي كان "في عداد المفتين بقرطبة، قدمه لذلك المعتد بالله هشام بن محمد في مدته"[2]، أو هذا العالم الذي "تولى الحكم بالجانب الغربي بقرطبة في أيام محمد المهدي"[3]، أو هذا المحدث الذي "تقلد أحكام القضاء بمدينة طليطلة ثم بدانية، ثم انصرف في آخر عمره إلى قرطبة فكان متصرفا بين مدينة إشبيلية وقرطبة إلى أن توفي [..] ومشى في جنازته المعتمد على الله محمد بن عباد راجلا"[4]، أو هذا العالم الأديب الذي "ولي الوزارة للمستكفي"[5].

إن هذه الوظائف سواء ما كان منها أقرب إلى الدين أو أقرب إلى السياسة تدل على تعامل بين العلماء و أولي الأمر. غير أن هذه العلاقة لا تخلو من اهتزاز أحيانا، من قبيل ما وقع للفقيه المحدث الذي "استقضي بمرسية، ثم استعفى عن القضاء فأعفي وأقبل على نشر العلم وبثه"[6] وصيغة الخبر ههنا دالة على أن القضاء مشغلة عن نشر العلم، وبهذا فإن المرء يكف عن أن يكون مصدرا للعلم حين يتقلد هذا المنصب. وربما قامت العلاقة بين الطرفين على سلسلة من الاتصال والانقطاع وهو

1 - م. ن. ج 1، ص 39.
2 - م. ن. ج 1، ص 41.
3 - م. ن. ج 1، ص 42.
4 - م. ن. ج 1، ص 63.
5 - م. ن. ج 1، ص 93.
6 - م. ن. ج 1، ص 145.

ما وقع لابن ذكوان (ت 413 هـ) الذي قلّده قضاء الجماعة بقرطبة محمد ابن أبي عامر بعهد الخليفة هشام بن الحكم [..] وكان قد تصرف في عمل القضاء بفحص البلوط إلى أن تقلّد خطة الرد محلّ والده [...] فلم يزل حاكما بخطة الرد مشاورا في الأحكام إلى أن ولي القضاء بقرطبة [..] وتقلّد بعد ذلك خطة الصلاة [...] فلم يزل يتقلّدهما معا إلى أن صرف عنهما [..] وتولى ذلك أبو المطرف ابن فطيس. ثم عزل ابن فطيس وأعيد ابن ذكوان إلى قضاء قرطبة والصلاة معا. فلم يزل يتقلّدهما معا إلى أن صرف عنهما [..] وامتحن محنته المشهورة عند الناس، فدعي بعد ذلك إلى القضاء بقرطبة فلم يجب إليه البتة"[1].

إننا نشهد من خلال هذه السلسلة من التولية والعزل صورة عن اضطراب الأوضاع السياسية في الأندلس في نهاية القرن الرابع ومطلع القرن الخامس للهجرة. غير أن الأمر من زاوية نظر العلماء ينمّ عن ضرب من النزوع إلى مقام الحكام يصل بهم أحيانا إلى حدّ الابتذال الذي لا يوقفه إلا الامتناع عن الاستجابة لطلب أولي الأمر. وهذه المراوحة بين القبول والرفض يمكن أن تعدّ حلقة وسطى بين الميل والنفور.

وإذا كان القطب الاقتصادي مسكوتا عنه في هذه العلاقة وكذا القطب الاجتماعي - إذ لا يخفى ما توفره هذه المناصب من مكاسب مادية ومن علو مقام - فإن الاهتمام مركز في تراجم هؤلاء الرجال على قطبي العلم والسياسة. وفي هذين القطبين لا يمثل التعامل بين العالم والسالس إلا حيزا ضئيلا من العلاقة بينهما. أما الوجه الغالب فهو ما يسميه ابن بشكوال بالانقباض، وهو علامة على تواضع العالم وقنوعه بحياة البساطة بعيدا عن السياسة وأهلها. فهذا محدث "كان في غاية الانقباض والتصاون"[2]، وآخر كان عفيفا، طاهرا، شديد الانقباض"، وثالث "كان شيخا صالحا ورعا منقبضا عن الناس"[3]، ورابع " لم تر عيني قط مثله نسكا وزهدا وصيانة لنفسه وانقباضا عن جميع أهل الدنيا"[4]، وخامس كان ذا " دين وفضل وورع وانقباض عن السلطان وإقبال على ما يعنيه ومواظبة على نشر العلم وبثه"[5]. وربما استبدل لفظ الانقباض بلفظ المجانبة، كما جاء في ترجمة شخص " له حظ وافر من

1 - م، ن، ج ا، ص 33.
2 - م، ن، ج ا، ص 51.
3 - م، ن، ج ا، ص 10.
4 - م، ن، ج ا، ص 115.
5 - م، ن، ج II، ص 655.

علم العربية، مع حسن هدي واستقامة طريق وظهور نسك وصدق لهجة وطيب أخلاق وترك للدنيا وإقبال على العبادة وعمل للآخرة ومجانبة للسلطان"[1].

إن ما يلفت انتباهنا في هذه الشذرات أنها تجعل الانقباض في جدول واحد مع جملة من الصفات المعنوية الإيجابية كالعفة والطهر والصلاح والزهد والدين والفضل والورع والهدى والاستقامة والنسك والصدق، وكأن صحبة السلطان لا يمكن أن تجتمع وهذه الخصال. وفي بعض مواضع كتاب "الصلة" تصريح بأن مصاحبة السلطان تذهب بقيمة العالم وتفسد سمعته، ومن ثمّ فإنّ اشتهاره بها يجلب عليه كره الناس، شأن هذا العالم الذي ذكره ابن حيان بصحبة السلطان والدخول فيما لا يعنيه، فتكرّه إلى أهل قرطبة وخرج عنهم إلى مالقة وسكنها إلى أن توفي بها"[2]. وقد يحدث ذلك بين العالم والعالم، فهذا أحدهم "روى عن أبي عمر بن عبد البرّ كثيرا ثم زهد فيه لصحبته السلطان"[3].

وبهذا يتضح الوجه الآخر من علاقة العالم بالسائس، وهو الوجه الغالب، ويتجلى من خلال المواجهة بينهما. وهذه المواجهة درجات أقلّها أن العالم "لا يداهن السلطان، ولا يميل معه بهوادة، ولا يدع صدقه في الحق إذا ضايقه"[4]. وتليها درجة أخرى يتحصّن فيها العالم بذاته فلا يدع لإغراء المناصب إليه سبيلا. كهذا الذي انتهت إليه رئاسة العلم بقرطبة " ودعي إلى القضاء [..] مرتين فأبى من ذلك واعتذر واستعفى عنه ولم يجب إليه البتة"[5]. ولكن الرفض يكون عنيفا أحيانا، فقد اشتهر أحدهم بالخير والصلاح "ودعاه علي بن حمّود إلى قضاء قرطبة فصرف الرسول على عقبيه وانتهره، ولم يعرض له عليّ بعد ذلك"[6]. وهذا ما صنعه الحافظ الفقيه الذي دعاه الخليفة إلى ولاية الشورى "وأنفذ إليه بذلك كتابا من عنده صرف به رسوله على عقبه وانتهره"[7]. وإن لم يجرؤ العالم على طرد الرسول وانتهاره، اكتفى بردّ سلبي، كهذا الذي "كان رجلا فاضلا ورعا، دعي الى قضاء طليطلة فأبى

1 - م، ن، ج II، ص 483.
2 - م، ن، ج I، ص 271.
3 - م، ن، ج I، ص 284.
4 - م، ن، ج I، ص 23.
5 - م، ن، ج I، ص 23.
6 - م، ن، ج I، ص 156.
7 - م، ن، ج II، ص 323.

وهرب من ذلك"[1]. وربما كانت المواجهة مقنعة فغدا العزل مدعاة للارتياح والاحتفال، وهو ما نجده عند قاضي الجماعة بقرطبة الذي "لم يزل يتولى القضاء على سداد واستقامة وهو يواصل الاستعفاء ويلح فيه إلى أن أعفاه السلطان [..] ولما وصل كتابه بالعزل اشتد سروره، وأعلى شكر الله عليه، وأبرز في الوقت مديا من قمح فتصدق به، ودخل بيته فعاود طريقته من الزهد والانقباض إلى أن مضى لسبيله مستورا"[2]. إن هذا الخبر يؤكد من طرف خفي أن القاعدة هي الانقباض، أما خدمة السلطان فحادث عرضي مآله الزوال.

أما الدرجة الموالية في هذه المواجهة بين العالم والسانس فهي الصدام بينهما. وكثيرا ما يقتصر صاحب كتاب "الصلة" على ايراد لفظ "المحنة" دون تفسير لها. فهذا عالم "امتحن محنته المشهورة عند الناس"[3]. وهذا آخر "امتحن محنة عظيمة"[4]. وثالث "نالته نفعه الله محنة شديدة من قبل البرابرة حين تغلبهم على قرطبة، وبلغوا منه مبلغا عظيما"[5]. وفي حالات أخرى يفصل القول في هذه المحنة. فيذكر أن أحدهم "لحقته محنة لكلمة عامية نطق بها نقلت عنه، فنيل بمكروه في بدنه، وسجن بجيان في سجنها، وأقام في السجن أعواما سبعة أو أزيد منها"[6]. وأن غيره "رجع إلى بلاد بني حماد فامتحن هنالك وقتل ذبحا"[7]، وأن ثالثا "توفي بقلعة رباح معتقلا من قبل ابن عكاشة قائدها"[8]، وأن رابعا "ذكر ابن حيان أنه مات معتقلا بشنترين مسموما"[9] وأن خامسا "قتله المأمون الفتح بن محمد بن عباد بالمدور ومثل به"[10].

وفي حالات أخرى يكتفي السانس بإجبار العالم على الإقامة بمكان لا يريم عنه، شأن قاض ولاه الأمير "ثم صرفه [..] لأشياء ظهرت منه. ويقي كذلك معطلا في

1 - م، ن، ج ا، ص 168.
2 - م، ن، ج ا، ص ص 314-315.
3 - م، ن، ج ا، ص 33.
4 - م، ن، ج II، ص 652.
5 - م، ن، ج II، ص 664.
6 - م، ن، ج ا، ص 5.
7 - م، ن، ج II، ص 613.
8 - م، ن، ج II، ص 422.
9 - م، ن، ج ا، ص 37.
10 - م، ن، ج II، ص 403.

داره، محرّجا عليه الخروج منه إلا إلى المسجد خاصة إلى أن توفي"[1]. أو ينفيه شأن عالم "من أهل قرطبة [..] أمر السلطان بإخراجه عن قرطبة لسعاية لحقته". إن هذه الدرجات المختلفة من المواجهة بين العالم والسائس تبدو لنا على حظ من التواتر كبير من كتاب "الصلة". وهي تؤول في رأينا إلى عاملين أحدهما ظرفي ومداره على إختلال الأمور في هذه الفترة مما نشأ عنه اضطراب في المراتب، والآخر مبدئي ناشئ عن التقابل الجوهري بين زوال سلطة السائس وبقاء سلطة العالم. إن السطوة الظاهرة التي يتميّز بها أهل السياسة إزاء أهل العلم تخفي سطوة أهل العلم لأنهم يمثلون الشرع ولا يعبؤون بالدنيا. ولعلّ خير الحافظ الأديب الذي سجن " وكان أهل الطلب يدخلون إليه في السجن ويقرؤون عليه اللغة وغيرها"[2] يصوّر لنا خير تصوير ذلك التقابل بين سلطة الأمير التي لا تجاوز الأبدان وسلطة العالم التي تمتدّ إلى الأرواح، ولا تعبأ بجدران السجون.

وهنا نجد أنفسنا أمام مجال القداسة الذي ينفرد به العالم دون السائس، وفي تراجم كتاب "الصلة" إشارات شتى إلى أن عددا من العلماء كانت لهم كرامات تجعلهم مقصد الناس، شأن هذا الذي "شهر بالخير والصلاح وإجابة الدعوة. وكان الناس يقصدون إليه، ويستنفرونه الدعاء، ويتبركون بلقائه ورؤيته"[3]، أوذاك الذي "ظهرت له كرامات"[4]. وبإمكاننا أن نميّز في هذه المرحلة بين صور ثلاث من هذه القداسة هي إجابة الدعوة وصدق الرؤيا والظواهر الخارقة.

وتظهر إجابة الدعوة في حالات منها ذلك الرجل الذي كان يثقل على الشيخ ويطعن عليه أثناء درسه، فدعا عليه الشيخ "فأقعد ذلك الرجل وما دخل الجامع بعد ذلك اليوم"[5] ومنها أن امرأة شكت إلى شيخ من شيوخ العلم أن ابنها أسره الروم وأنها لا تقدر على افتدائه ولا على العيش بدونه فدعا الشيخ. وبعد مدّة أطلق سراح ابنها، وذكر أن قيده انحلّ ووقع على الأرض " ووصف اليوم والساعة فوافق الوقت الذي جاءت المرأة ودعا الشيخ"[6]. ثم قيّد من جديد فانكسر القيد فأطلق.

---

1 – م، ن، ج 1، ص 137.
2 – م، ن، ج 1، ص 183وج1-ص ص 5-6.
3 – م، ن، ج 1، ص 156.
4 – م، ن، ج 1، ص 81.
5 – م، ن، ج II، ص 633.
6 – م، ن، ج 1، ص ص 118-119.

أما صدق الرؤيا فيتجلى في انكشاف المستقبل للعالم على نحو رمزي. فهذا يقرر العزم على السفر بحرا، فيفتح المصحف فتقع يده على قوله تعالى "واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون" " فتخلفت عن ركوبه وركبه قوم فغرقوا بأجمعهم"[1]. وذلك يرى في المنام "أنه كان يبلغ سبعين دينارا ذهبا"[2] وكانت تلك علامة على أنه يموت في سن السبعين، وكذلك كان.

وأما الظواهر الخارقة فتظهر في مقاومة النار على نحو ما يظهر في خبر عالم له دار أصابتها النار في الحريق الذي لحق أسواق طليطلة " فاحترقت الدار إلا البيت التي كانت فيه كتب أحمد، وكان ذلك الوقت في الرباط. وعجب الناس من ذلك، وكانوا يقصدون البيت وينظرون إليه"[3]. كما تظهر فيما يصحب الجنازة من أحداث غير عادية، فقد حدث أحدهم "أنه رأى على نعش حكم بن محمد هذا يوم دفنه طيورا لم تعهد بعد كانت ترفرف وتتبع جنازته إلى أن ووري في لحده"[4]

وهذا يشبه ما وقع في جنازة أحد الفقهاء إذ "عاين الناس منها آية من طيور أشباه الخطاف وما هي بها تجللت الجمع رافة فوق النعش جانحة إليه مسفة لم تفارق نعشه إلى أن ووري فتفرقت. وعاين الناس منها عجبا تحدثوا به وقتا"[5]

إن ما تفيده هذه الأخبار من قدرة العالم على خرق حاجز الزمان ومجاوزة المكان وتخطي المألوف إنما يرد لتأكيد قدسيه العالم وامتلاكه قدرات خارقة تجعل منه شخصا غير عادي. وبهذا نجد أنفسنا وقد انطلقنا من الحياة اليومية ولوازمها المادية إلى إنشاء صورة مضخمة هي على المعتقدات الشعبية السائدة أدل منها على حقيقة العلماء في حياتهم وموتهم.

وقد قادنا هذا البحث عن حياة العلماء اليومية في الأندلس إلى تبين ظاهرة بارزة تتميز بالصراع المستحكم بين أطراف إقرار السنة ونقضها، وقانون السياسة وقانون العلم، والظاهر والباطن، والمادة والروح، ومن ثم بين نمط الثبات ونمط التحول، وبين قانون المحاكاة وقانون المجاوزة.

وقد دلنا هذا على أن الصراع بين القوى الاجتماعية قد هز الكثير من المسلمات

---

1 - م، ن، ج ا، ص 247.
2 - م، ن، ج ا، ص 356.
3 - م، ن، ج ا، ص 22.
4 - م، ن، ج ا، ص 150.
5 - م، ن، ج ا، ص 511.

وانسحب أثره على حياة العلماء. غير أن هذه التحولات وما صاحبها من تغيّر في النظم الرمزية التي تحتويها لا يمكن أن تدرس بمعزل عن قوى الكبح التي تستمدّ شرعيتها من المؤسّس. وعلى هذا النحو فإن قوى الثبات تدفع إلى الاحتواء في حين أن قوى التحوّل تعمل على المحو.

وهذا الصراع لا يتجلى في مستوى المضمون وحسب وإنما يظهر أيضا في مستوى الجنس الأدبي. ذلك أن هذه الشذرات دالة على تفاعل حادّ بين المقولات الأجناسية والمعطيات الخارجية الحافة. وعلى هذا الأساس فإن هذه التراجم هي أوّلا خطاب، وهي بعد ذلك خطاب متعدّد المصادر متنوّع المشارب، ينمّ عن سياقات إنتاج مختلفة. وبالتالي فإن وحدته ظاهرية بحت، إذ لا يمكن لقراءة واحدة أن تحيط به. إننا بذلك من هذا النصّ إزاء رؤى متعددة ومقاصد لا تحدّ، بعضها صريح وأكثرها معنى مسكوت عنه.

وهذا الوضع هو الذي يجيز لنا أن نؤكد حدود هذه المقاربة. ففي كتاب الصلة معطيات كثيرة لا تجد لها أنساقا متكاملة شأن الحاضر والماضي، والمغرب والمشرق، والعدوة الأندلسية والعدوة الإفريقية، والرجل والمرأة، والإسلام الرسمي والإسلام الشعبي. وهي عناصر يمكن أن تدخل في أنظمة إذا ما توفرت معطيات أخرى تكملها. كما أن هذا البحث تسبي النتائج لخلوه من الإحصاء الدقيق الذي ينهض على التمييز بين المراتب الداخلية الجزئية داخل مجموعة العلماء وداخل المجتمع الأندلسي بصفة عامة. إن هذه النسبية وإن كانت ناشئة عن طبيعة المقاربة فإنها سليلة هذا التباعد بين آلة البحث ومادته. وفي هذا السياق نرى أن أجناس الأدب العربي القديم تحتاج إلى أدوات بحث مخصوصة تستنبط من طبيعة المادّة ذاتها وتسعى إلى الانطلاق منها واستكناه مميزاتها والإجابة على أسئلتها التي هي أسئلة الراهن أكثر منها أسئلة الماضي.